تحديد وسائط تعليمية لتوظيف المصطلح القرآني في تصميم الكتاب المدرسي العلمي

صالح بن طاهر مشوش*

الملخص

يدرس البحث كيفية توظيف المصطلح القرآني في محتويات الكتاب المدرسي في مادة العلوم. يقوم الإطار المرجعي لتوظيف المصطلح القرآني على بنية مفهومية–قيمية ثلاثية تضم التفكُّر والتذكُّر والشكر، وتستجلي محفزاتها المادية الخارجية (التسخير، والتقدير، والتوازن)، وتبين الرؤية النظرية الكلية التي تُسوّغ الترتيب التصوري والمنهجي في تصميم الكتاب واستخدامه في المدرسة. يتضمن البحث ثلاثة محاور: أولها أثر الوحي في نشأة التفكير العلمي، وثانيها وسائل الوحي المعرفية في صياغة التفكير العلمي، وثالثها وظيفة المصطلح القرآني في مجال العلوم الطبيعية. وتوصل البحث إلى أن العلاقة التي تجمع الوحي مع العلوم الكونية علاقة تلازمية ضرورية، وبنائية وظيفية، وأصولية تكوينية، لا يمكن الاستغناء عنها في تشكيل ماهية العلم وترشيد تطبيقاته العملية.

الكلمات المفتاحية: المصطلح القرآني، الرؤية الكونية، التوحيد، التسخير، التفكير، التعليم، إسلامية المعرفة.

Identifying educational ways to use Quanic terms in designing school science textbook

Saleh b. Tahar Machouche

Abstract

This work examines the way to incorporate the Qur'anic terminology in the contents of science textbooks. The Qur'anic conceptual frame is based on three core concept-values namely: thinking, remembering, and gratitude. Those values are related to specific features of the physical world, that illustrate three main features namely, (*taskhir*- subjection), (*taqdir*-quantificatin), and (*mizan-balance*). They also illustrate the worldview that defines the conceptual and methodological arrangement in the design and use of school textbooks. The first part of the paper deals with the impact of revelation on the emergence of scientific thinking. The second is about the cognitive means of revelation and the formulation of scientific thinking. The last part deals with function of the Quranic terminology in the field of natural sciences. The study has found that the relationship that brings revelation with natural science is a necessity, functional and constructive which can't be ignored in shaping the nature of science and using its practical applications wisely.

Keywords: Quranic term; Worldview, *Tawhid* (Oneness of Allah); Subjection, Thinking, Teaching, Islamization of Knowledge.

---

* صالح بن طاهر مشوش، دكتوراه في أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، 2009، أستاذ مساعد في الجامعة نفسها. البريد الإلكتروني: bentahar@iium.edu.my

تم تسلم البحث بتاريخ 2017/2/13م، وقُبل للنشر بتاريخ 2017/11/2م.

مقدمة:

يعاني العالم الإسلامي عامةً –بدرجات متفاوتة– ضعفاً واضحاً في مناهج التعليم في وقتنا الحاضر؛ فقد كثرت مشكلاته المتعلقة بطرائق التعليم ومناهجه ومحتوياته، وبنية المؤسسات ورسالتها، وضاعت منه الكثير من القيم، وغُيِّبَت المقاصد الأصلية التي تُميِّز التعليم الإسلامي من غيره. ولم يقتصر هذا الوضع المتردي على نوع من العلوم دون غيرها، بل شملها جميعاً، وإنْ كان وضع العلوم الشرعية يختلف عن غيرها من العلوم الطبيعية. فمتطلبات الصنف الأول المادية أقل منها كثيراً للصنف الثاني الذي يلزمه توافُر رؤوس أموال كبيرة، ومؤسسات ضخمة، ومعدات متنوعة، ومناهج تسيير، وإدارة معقدة؛ ليتمكَّن من الاستمرار ومواكبة مناحي التطور.

غير أن هذا الاختلاف الواقع بين هذين الصنفين من العلوم (الشرعية، والطبيعية) يقل أثره إذا علمنا أن كُلّاً منهما يعاني مُشْكِل "الانفصال"؛ فهيئة العلوم الشرعية الحالية تعاني البُعْد والانفصال عن معرفة أحوال العمران الإسلامي ومتطلباته الآنية. وأمَّا شكل الانفصال الذي تعانيه العلوم الطبيعية فهو أخطر؛ لأنه يقع في أمرين، هما: تجاهل الإيمان بالله والتوحيد والوحي الإلهي، وتغييب الحقيقة الإنسانية بتحويل الإنسان إلى مجرد وسيلة رخيصة تتضاءل قيمتها وأهميتها في ظل ازدياد التراكم العلمي، وعِظَم اكتشافاته، واتساع دائرة تأثيراته؛ ما يؤدي إلى ذهول الإنسان عن معنى الحياة الحقيقي. إن الوضع المعقد الذي يصنع الأُطر الفلسفية والأيديولوجية التي تحتضن العلوم الطبيعية في هذا الزمن يزداد حدَّة بالترويج والتعميم لمجموعة من التصورات غير الدقيقة، مثل: الحيادية neutrality، والموضوعية objectivity، والكونية أو العالمية universality، والواقعية reality المستمدة من طرائق تعليم تجريبية تُحقِّق قدراً عالياً من التوحيد النموذجي uniformity/standardization.

فالعلوم جميعاً أصلها "الفكر الذي يهتدي به (الإنسان) لتحصيل معاشه، والتعاون عليه مع أبناء جنسه، والاجتماع المهيأ لذلك التعاون."[1] ولذلك يخضع جميعها لما سمّاه

[1] ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، المغرب، الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، ط1، 2005م، ج5، ص183.

ابن خلدون "أحوال العمران البشري". فمهما حاول أصحاب المعرفة والعلوم تنزيهها عن ملابسات هذا العمران وأحواله، فإنهم –حقيقةً– يُثبِتون أحقية وجود هذا التأثير الحتمي؛ لأن جهودهم هذه تصبح جزءاً من تلك الملابسات الإنسانية الضرورية التي تطال جميع أصناف المعرفة الإنسانية. وبحكم هذا "القانون المعرفي"، نلاحظ أن العلوم تقع على أشكال وهيئات معقدة، تضم إليها مجموعة من المُكوِّنات الإضافية، تُمثِّل غالباً خلفيات عقائدية، واجتماعية، وثقافية، وحضارية، وأيديولوجية، تُعبِّر عن شخصية الباحث الذي اجتهد في تطويرها، أو اكتشافها أو استعمالها، أو نقلها إلى الآخرين. ولهذا السبب، لا تقتصر عملية التعليم وصوغ المواد التعليمية على اكتشاف المعلومات، وترتيبها، ونقلها إلى الآخرين فحسب، بل تشمل عملية بناءٍ لتجربة إنسانية ضخمة، تمسُّ كل شيء يتعلق بالمجتمع والأُمة المعنية؛ من: اللغة، والدين، والبنية الاجتماعية، ونظام الحكم، والسياسة، والرؤية الكونية للمجتمع، ومعنى الحياة، واتجاه العمران ومؤسساته وغايته.

أولاً: أثر الوحي في نشأة التفكير العلمي ومناهج البحث

حاول الكثير من المستشرقين وأتباعهم فصل نشأة المعرفة العلمية ومنجزاتها في الحضارة الإسلامية عن الدين ومؤسساته، وشدَّدوا في تأكيد تأثيرات العوامل الخارجية ذات الطابع المادي، مثل ظاهرة الاحتكاك بالحضارات الأجنبية (الهندية، والفارسية، والرومانية، والإغريقية، والصينية). بل ذهب بعضهم –بعد الوقوع في اختزال مفهوم "العلم" و"أنسنته"– إلى اعتبار أن نشأة العلم تاريخياً مردُّها حصرياً التجربة الإنسانية الخالصة التي ظهرت "حينما بدأ الإنسان القديم يُفكِّر في التغلُّب على مصاعب البيئة التي كان يعيش فيها، فتاريخ العلم، إذن، هو تاريخ التطور الفكري في الإنسان، ذلك التطور القائم على تخيُّل الأمور ثم السعي على منهاج مخصوص لتحقيق الأمور المتخيّلة في نطاق البيئة التي يعيش فيها الإنسان."[2]

وحاولت الأدبيات الغربية خاصةً –في ظل هيمنة النظرة الاستشراقية على العالم الإسلامي وحضارته– تفسير الكثير من المنجزات العلمية التي حقَّقها المسلمون، وادِّعاء

[2] فروخ، عمر. **تاريخ العلوم عند العرب**، بيروت: دار العلم للملايين، 1970م، ص17.

أنها مجرد احتكاكات واستعارات ونُقول، ساعد على وقوعها عمليات الترجمة التي تولَّتها رسمياً مؤسسات معروفة -مثل بيت الحكمة في بغداد منذ عهد المأمون (813-833م/197-218هـ)- والتي استمرت خلال الأعوام (750- 900م/132- 287هـ)، وأن الاعتماد عليها كليةً أصبح عائقاً يحول دون تفسير كثير من هذه المنجزات، ولا سيما تلك التي ترتبط ارتباطاً شديداً بمصدر الوحي، وكيان الأُمة الإسلامية، وحاجاتها. وقد انتبه لهذه المسألة بعض الباحثين ممَّن اهتموا بدراسة تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، مثل جورج صليبا[3] الذي انتقد الروايات التقليدية narative classical في تفسير تطور العلوم عند المسلمين، التي تحاول دائماً التقليل من إسهاماتهم، وتَعُدُّهم مجرد نَقَلَةٍ لما أنجزه غيرهم في الحضارات التي عاصروها شرقاً وغرباً. أمَّا (كيغ) فأشار إلى ظاهرة تركيز معظم مؤرخي العلوم الإسلامية (من المسلمين، وغير المسلمين) على المنجزات المادية، وإغفالهم (أو تجاهلهم) دراسة الطبيعة والخصوصيات لتلك العلوم التي تحمل وصف "إسلامية.[4] وبسبب هذه الثغرات؛ يتعيَّن على الباحثين الالتفات إلى عامل آخر كان حاسماً في حدوث هذا التطور، وهو كفيل بتفسير الأسباب الحقيقية التي جعلت تفكير الإنسان "العربي" يَتَّجِهُ نحو أنماط التفكير العلمي، وينتقل من أساليبه البسيطة إلى مستويات مُرَكَّبة من الإدراك والتفكير والمعرفة؛ وهذا العامل هو الوحي.

إنَّ دَرْس علاقة الوحي (الدين) بالعلوم في الإسلام هو بحث عن استمداد وتأثير طبيعي توافقي بعيد عن الصراع أو الانفصال الذي تعانيه العلوم والديانات الأخرى المنحرفة، أو تلك التي وضعها الناس وَفْق عاداتهم وتقاليدهم. فالكلمة الأولى التي سمعها الرسول ﷺ من ناقل الوحي جبريل عليه السلام، هي "اقرأ" في سورة العلق، التي اختُتِمت بكلمتين مهمتين جداً في تحديد اتجاه القراءة واكتساب العلوم، هما: "واسجد"، "واقترب". فالسجود يعني الخضوع لإرادة الله في الأحوال كلها، و"القرب" من الله الخالق

[3] المقصود هنا الروايات التقليدية الغربية حول تقدم العلوم في الحضارة الإسلامية، انظر ذلك في:

- Saliba, Goerge. *The Islamic sciences and the making of European renaissance,* London: The MIT Press, 2007, p.19.

[4] King, David A. *Astronomy in the Service of Islam*, Great Britain: Variorum, 1993, p.245.

هو النتيجة المُتحصَّل عليها بسبب الطاعة والانقياد، وذلك بأداء العبادات، والابتعاد عن المعاصي، واتِّباع التعاليم والأحكام في مختلف أنشطة الحياة وجوانبها.

والقراءة التي دعا إليها الوحي تختلف كثيراً عن أنماط القراءة والتفكير التي اعتادها العرب قبل الإسلام، وحسْبنا بيان الاختلاف الرئيس بينهما باستعراض نمطين من التفكير، هما: النمط الشعري، والمنهج القرآني. فقد كان الشعر في الجاهلية يُلخِّص كل شيء يتعلق بأحوال العرب الروحية، والنفسية، والذهنية، والاجتماعية، ورؤيتهم الكونية، وكل ما يخص حياتهم. فالمعلقات –مثلاً– تدل على شهادات وإنجازات وصلت سقف الاجتهاد والنبوغ والإبداع، في حين تُمثِّل أيامُ العربِ مرجعَ تاريخهم الشامل الذي يجمع مُكوِّنات حياتهم. وهذا النظام الذهني يقوم على عناصر جَدِّ مرتبطة بنمط حياة الإنسان العربي ومحيطه العمراني، وتشمل الشعر أو القصيدة بوصفهما قالباً للتفكير، والخيال، والعبرة أو التجربة الإنسانية الواقعية، والفضاء الأسطوري، والعمران الاجتماعي القبلي، ورؤى كونية إنسانية قاصرة ومختلفة.

وقد ذكر القرآن الكريم الشعراء وطريقتهم في التفكير، وسَمّى سورة كاملة باسم الشعراء، ووصفهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ (الشعراء: 224–226). يضاف إلى ذلك أن العرب –كما هو معلوم– لم يكن لديهم رصيد يُعْتَدُّ به في مجال العلوم، وأن المعارف التي أتقنوها اقتصرت –بحكم البيئة التي عاشوا فيها– على معلومات مباشرة عن أرضهم، وما عليها من أشكال تضاريسية، وما سادها من مناخ، وما عاش على ظهرها من حيوان ونبات، بحيث برعوا في تتبُّع الأنواء، وتعرُّف أوقات نزول الغيث، ومهروا في علم الأثر والقيافة، واشتُهِر بينهم علم الأنساب الذي يعتمدون عليه في عقد تحالفاتهم، والمنافسة على مراكز الرئاسة، وهي في جملتها معارف بسيطة كانت تفي بمتطلبات حياتهم، غير أنها –بالرغم من قيمتها العلمية– لم تكن ترقى لأن تُسمّى علوماً؛ لأنها كانت تنتقل بين الأجيال شفوياً.[5]

[5] حسن، إبراهيم حسن. **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1964م، ج1، ص67.

أمَّا أسلوب القرآن الكريم في التفكير فيقوم على القراءة، والبيِّنة التي أشار إليها القرآن بألفاظ عدَّة، يحمل كلٌّ منها خصوصيته، مثل: الحجة، والسبب، والدليل، والآية، والبرهان، والسلطان، ...، والتفكير السليم الذي تتلاشى أمامه غيوم الإبهام والشك والضلال و"الغلط الفاضح"، واعتبار الواقع وملاحظته، والجمع بين العلم والعمل ...؛ فكل هذه الأسس يجمعها أساس عقيدة التوحيد الإسلامية.

ولم يكتفِ القرآن الكريم فقط بعرض هذه الوسائل المنهجية في التفكير لاكتساب العلوم، وإنما وضع نظاماً لا مثيل له في إثارة العقل البشري، وتحفيزه، وتعزيزه، وتوجيهه إلى الحق واكتشاف آيات الله في الآفاق والأنفس. فمثلاً، يُرشِد القرآن الكريم الإنسان إلى اعتماد البرهان في ما يدَّعي معرفته ودرايته به. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (النمل: 64)؛ فغياب البرهان يُنقِص من قيمة المعرفة –وإنْ كانت صحيحة– بسبب قلَّة مَن يتَّخذها دليلاً في حياته، ومصدراً للاستفادة العملية.

وقد قامت العلوم الحديثة، وبخاصة تلك التي تتصل بالعالم الطبيعي، على المناهج التجريبية التي تعتمد الملاحظة، والاستقراء، والتجريب، والتكميم، وتحديد النتائج وتنظيمها، والتنبؤ، وتحويل المعلومات إلى منتجات يستفاد منها في بناء الحضارات، وما تقوم عليها من المستلزمات المادية والمعنوية. ولو أخذنا –مثلاً– الوسيلة البحثية الأولى (الملاحظة) لوجدنا أن القرآن الكريم قد حفَّز وحثَّ –مراراً وتكراراً– على استعمال الملاحظة، بل دلَّنا على إتقان الملاحظة حتى تؤتي نتائجها الدقيقة، التي هي أقرب إلى ما هو كائن في الواقع. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ (الملك: 3–4)؛ فقد أشارت الآية الكريمة إلى عملية الإرجاع أو مراجعة البصر للتحقُّق من حدوث الفطور والتفاوت أو الفروج كما جاء في موقع آخر؛ أي عدم التناسب.[6] وطلب تكرار "إرجاع البصر" هو أشبه باعتماد أسلوب الإحكام والإتقان في ممارسة وسيلة الملاحظة، والتزام بنتائجها عن طريق التكرار والإعادة اللذينِ يتغيَّر من خلالهما عامل الزمن والمكان

[6] الرازي، فخر الدين. **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، بيروت: دار الفكر للنشر والتوزيع، 1981م، ج30، ص57.

أو زاوية النظر، وهما قاعدتان يقوم عليهما "تصميم التجربة العلمية" بمختلف أنواعها. وهذه الوسيلة تساعد كثيراً على تجاوُز مُعوِّقات العلم، مثل تأثيرات الهوى والجهل. ولم يكتفِ القرآن الكريم بهذه الإشارات، بل وفَّر قدراً كبيراً من مصطلحات "اللغة العلمية" المُعبِّرة عنها (مثل: النظر، والتذكُّر، والتفكُّر، والاعتبار، والرؤية، والتبصُّر، والمشاهدة، والإدراك)، وأوجد فضاءً حيوياً تنشط فيه حركة العلم وأسبابه، وهو فضاء الاستفهام والسؤال والبحث عن الحقيقة، واكتشاف ما أودعه الله في الكون.

ولم ينحصر دور الوَحْي في هذا الجانب في الحثِّ على سلوك طريق العلم ومنهجه؛ إذ ربط الإسلام ممارسة العبادة على الأرض بأصناف العلوم والمعارف التي لا يمكن الحصول عليها إلا بالتوجُّه إلى عالم الملاحظة والتجربة والتكميم؛ فالصلاة بحاجة إلى علوم ثلاثة، هي: الجغرافيا الطبيعية، وعلم الميقات، وعلم الهيئة؛ والزكاة بحاجة إلى علم الحساب؛ والصيام بحاجة إلى علم الميقات والهيئة؛ والحج بحاجة إلى علم الجغرافيا وإلى علوم أخرى تُسهِّل إتيانه، والمحافظة على الحقوق؛ وتوفير الحلال من الأرزاق في البيع بحاجة إلى علم المقادير وأدواته؛ وحساب الميراث بحاجة إلى علم الفروض، ومسائله المتنوعة هي التي دفعت محمد بن موسى الخوارزمي (توفي 850م/ 235هـ) إلى اكتشاف علم الجبر وتطويره؛ ما أحدث ثورة علمية لا مثيل لها في تاريخ الرياضيات. يقول في مقدمة كتابه: "أَلَّفْتُ من حساب الجبر والمقابلة كتاباً مختصراً، جعلته حاصراً لِلَطيف الحساب وجليله، لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم، وفي مقاسماتهم وأحكامهم وتجاراتهم، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحات الأرضين وكري الأنهار والهندسة، وغير ذلك من وجوهه وفنونه."[7]

وبالمثل، فإن جهود العلماء المسلمين في علم الهيئة أو الفلك، المتعلقة بتحديد توقيت الصلوات والصلاة الوسطى –التي ورد ذكرها في سورة البقرة (الآية 238)– في أماكن مختلفة من الكرة الأرضية، أفضت إلى تحقيق إضافات علمية في تحديد المسافات،

[7] الخوارزمي، محمد بن موسى. **كتاب الجبر والمقابلة**، تقديم وتعليق: علي مصطفى مشرفة، ومحمد مرسي أحمد، القاهرة: مطبعة بول بريبه، 1937م، ص16.

والمراكز، وحركات الكواكب، وحساب المعادلات الخاصة بهذه الظواهر.[8] وقد نوَّه المستشرق الإيطالي نالينو بما أدخله المسلمون من تغييرات كبيرة على علم الفلك القديم، بوحي من القرآن وتعاليمه، فقال: "لا يخفى على مَن اعتبر أمور الدين الإسلامي ولو قليلاً ما وقع بين بعض أحكام الشريعة الإسلامية في العبادات وبين بعض الظواهر الفلكية من الارتباط الواضح الجلي. إن أوقات الصلوات الخمس تختلف من بلد إلى بلد، ومن يوم إلى يوم، فيقتضي حسابها معرفة عرض البلد الجغرافي، وحركة الشمس في فلك البروج، وأحوال الشفق الأساسية. ومن شروط الصلاة الاتجاه إلى الكعبة، فيستلزم ذلك معرفة سَمْت القبلة؛ أي حل مسألة من مسائل علم الهيئة الكروية مبنية على حساب المثلثات. ومَن أحبَّ صلاة الكسوف يَحسُنُ التأهب لها قبيل انكساف الشمس أو القمر، فلا يمكن ذلك إلا بمعرفة حساب حركات النيِّرين، واستعمال الأزياج المُتقنَة."[9]

يتبيَّن لنا من هذه الأمثلة أن دور الوحي في تشكيل العقلية العلمية، وتوجيه المسلم إلى ميادين العلم ومجالاته، هو أمر أساسي بنائي، لا يمكن الاستغناء عنه في فهم تطور العلوم في الحضارة الإسلامية، ولا في إحياء هذه الثقافة العلمية التي نفتقدها كثيراً في يومنا هذا. فالعلم في الإسلام –بغضِّ النظر عن شكله، وموضوعه، ومنهجه، وهدفه– لا يُطلَب، ويُستحدَث، ويُطوَّر إلا وَفْق تعاليم الدين العظيم ومبادئه وأساسه التوحيدي الشامل الذي يُمثِّل منهاج حياة المسلم في جميع أبعادها.

ثانياً: وسائل الوحي المعرفية في صياغة التفكير العلمي

لم تكن علاقة الوحي بتشكيل التفكير العلمي في الإسلام كغيرها ممّا في الديانات الأخرى التي تعاني ضعفاً شديداً في مواكبة التطور العلمي وأساليبه ومنتجاته، وما يفضي

[8] Saliba, George. presentation in : Arabic/Islamic Astronomy in Intercultural and European Context (The 20th International Planetarium Society Conference (IPS2010)) see the link:
- www.youtube.com/watch?v=ZsJ4Zrf8miA.

[9] الدفَّاع، علي عبد الله. **العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1983م، ص356.

إليه ذلك من تأثير في العمران البشري؛ فقد وَجد أن الكثير من نصوص هذه الديانات يناقض العلم والحقائق التي يُبشِّر بها بسبب ثقل المضامين الأسطورية والتعاليم الغامضة التي تدخل في تشكيلها، مثل مسألة "بداية العالم". غير أن هذه المشكلة لم تعترض الباحث المسلم في فهم علاقة الإسلام بالعلم والتوفيق بينهما، يُؤكِّد ذلك ظهور مدرسة الإعجاز العلمي التي كان من أهدافها البحث عن المسائل الجزئية، أو الآيات الكونية في الوحي. والعلم يشهد على هذا التوافق،[10] تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت:53).

فالوحي في الإسلام هو الذي مَهَّد الطريق، ووضع الأصول، وأيقظ الهمم والرغبة في ممارسة البحث، والسعي إلى اكتشاف الخبايا الكونية، والاستفادة منها وَفْق ما تقتضيه قيم الدين وأصوله في العمران والاستخلاف. وقد حاول بعض مَن تأثَّر بالإبستمولوجيا الغربية ونظرياتها في المعرفة وتطورها، نقل مسألة علاقة التنافر بين الدين والعلم إلى دائرة الإسلام، ولكن سعيهم خاب بسبب الاختلاف الكبير الذي يُميِّز الدين الإسلامي عن غيره من الأديان في علاقته بالعلوم. وفي ما يأتي بيان للوسائط المعرفية التي نسجت العلاقة البنائية التي تجمع بين الوحي والتفكير العلمي بالوقوف عند جملة من المُكوِّنات التي تدخل في ماهية العلم.

1. اللغة الاصطلاحية والمفاهيم:

لا شك في أن للغة موقعاً بنيوياً في الخطاب العلمي؛ فجميع العلوم بحاجة ضرورية إلى استخدام اللغة في هيئتها الطبيعية والاصطناعية الرمزية، لغرض نشر محتواها، وبناء نظمها التعبيرية. فاللغة "هي القالب الذي يَنْصبُّ فيه الفكر، والفكر هو المضمون الذي يحتويه ذلك القالب اللغوي، وإن المضمون يأخذ شكل القالب، ويتحدد بحدوده؛ في وضوحه وجودته، أو غموضه ورداءته. مع ذلك، فإن ممّا لا شك فيه أن علاقة اللغة

[10] النجار، زغلول راغب محمد. **تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2008م، ص28. وقد عزا النجار ظهور هذا الاتجاه إلى أبي حامد الغزالي (توفي 505هـ) في كتابه "جواهر القرآن"، وإلى تابعه الإمام الرازي (توفي 606هـ).

بالفكر علاقة تبادلية وتكاملية؛ تبادلية من حيث إن أحدهما يُؤثّر في الآخر، وتكاملية من حيث إن أحدهما يحتاج إلى الآخر. فمقدار غِنَى أحدهما يكون إغناء الآخر، وكلٌّ منهما يُسهِم في إغناء الآخر."[11] فخصوصيات اللغة، الثقافي، وأنساقها التداولية، وتطورها التاريخي؛ كل ذلك يُسهِم إسهاماً فاعلاً في صياغة اللغة العلمية. غير أن موضوعات المعرفة تعمل على صياغة لغات رمزية تخصها؛ ما يجعلها ظاهرة متعالية على المحيط الثقافي للعالم الذي يُطوِّرها، أو يستخدم تلك اللغة.

لقد انتبه العلماء المسلمون لهذه الخصائص، واهتموا كثيراً بتطوير مصطلحات علومهم، والتحقيق في المصطلحات الدخيلة، وعملوا على ردِّها في حال اتِّساع الفوارق في المعنى والدلالة. فمثلاً، أشار ابن خلدون إلى مركز اللغة في المعرفة والنشاط الإنساني العام حين قال: "اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة هي فِعْلٌ لساني، فلا بُدَّ أنْ تصير مَلَكَة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أُمة بحسب اصطلاحهم، وكانت المَلَكَة الحاصلة من ذلك للعرب أحسن المَلَكَات وأوضحها إبانةً عن المقاصد."[12] وبالمثل، فقد انتبه عبد الملك بن مروان (26–86هـ) لأهمية اللغة في خدمة العلوم وغيرها من الأنشطة الإنسانية في الحضارة الإسلامية، فقام في خطته لتعريب الإدارة[13] والأنشطة الحيوية مثل التعليم.

ولبيان قيمة المصطلح القرآني في صياغة محتوى اللغة العلمية ودلالتها في الوصف والتفسير، يجب الإشارة إلى الفروق والتأثيرات النفسية والذهنية المتعلقة باستخدام المصطلحين؛ مصطلح "الظاهرة الطبيعية"، والمصطلح القرآني "الآية الكونية". فالظاهرة الطبيعية natural phenomenon التي شاع استخدامها في اللغة العلمية للدلالة على موضوعها المادي تحمل عدَّة معانٍ تحصرها علاقة الإنسان بالعالم المادي، وهذه المعاني تشمل: الشيء الظاهر occurrence، والوقائع facts، والظروف circumstances،

[11] ملكاوي، فتحي حسن. **البناء الفكري: مفهومه، مستوياته، وخرائطه**، عمّان–الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 2015م، ص205.

[12] ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص396.

[13] الصلابي، علي محمد. **خلافة عبد الملك ودورها في الفتوحات الإسلامية**، بيروت: المكتبة العصرية، 2010م، ص166–167.

والشيء الذي يمكن أن يُدرَك عن طريق الحواس، والشيء العجيب unaccoutable an unusual، والجسم object القابل للإدراك عن طريق الحواس، لا التصور العقلي، أو الحصول الحدسي thought and intuition، أو الجسم المُؤقَّت المُحدَّد مكاناً وزماناً، الذي تستوعبه التجربة الحسية a temporal or spatiotemporal object of sensory experience، والواقعة، أو الموضوع العلمي، أو الموضوع القابل للوصف والتفسير العلمي a fact or event of scientific interest susceptible to scientific description and explanation.[14] فكل هذه المعاني لا تخرج عن تجربة الإنسان الإدراكية والمعرفية تجاه العالم المادي، في حين أن المصطلح القرآني "الآية" جاء أكثر شمولاً لأبعاد الإنسان، والعالم، والمعرفة العلمية.

فمن الناحية اللغوية، يدل المصطلح على: "العلامة الظاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر، وهو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مُدرِكٌ الظاهرَ منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يُدرِكه بذاته، إذ كان حكمهما سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات، فمَن علم ملازَمة العَلَم للطريق المنهج ثم وجد العَلَم علم أنه وجد الطريق، وكذلك إذا علم شيئاً مصنوعاً علم أنه لا بُدَّ له من صانع."[15]

أمَّا خصوصيات المصطلح القرآني الوظيفية المتعلقة بالعالم المادي فيمكن تلخيصها في: الوصف الكمي والنوعي، وبيان التأثير، والعلاقة، وتصوير مُكوِّنات النظام الكلي وأُسسه والسنن التي جعلها الخالق فيه. فالمصطلح القرآني يبني العقلية العلمية من جذورها بتوفير تصورات كلية واضحة يقينية عن الكون، ويُبعِد الذهن الإنساني عن التصورات الخاطئة التي لا تزال تُضِل العقل البشري الذي ادَّعى لنفسه الكمال والاستقلالية الموهومة عن هداية الوحي الإلهي، مثل: الدارونية، والمصادفة، والفوضى، وأزلية المادة وتأليهها، ونفي عالم الغيب، وغير ذلك من الضلالات التي تُقدَّم للناس بوصفها جزءاً من التصور العلمي للكون، وهي –حقيقةً– ليست سوى تأثيرات أيديولوجية لا تنفك عن تفكير

[14] www.merriam-webster.com/dictionary/phenomenon, retrieved on December 9, 2016.

[15] الأصفهاني، الراغب. **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق–بيروت: دار القلم، الدار الشامية، ط4، 2009م، ص202.

الباحث وتخميناته، وتظهر في بعض الحالات في أدبيات الباحثين بصور أنساق تفسيرية paradigm تتألَّف من القوانين، والنظريات، والتطبيقات، والوسائل المستخدمة،[16] وتخص أفراد الجماعة العلمية scientific community الذين يُعلِّلونها بتجاربهم، وبعض المعطيات والتراكمات المعرفية التي تقع تحت أيديهم.

2. الرؤية الكونية:

لا شك في أن الكون وتأثيره هما أكبر من الإنسان ونشاطه؛ فمهما ادَّعى هذا الأخير القدرة على السيطرة والتحكُّم والتمكُّن بناءً على إنجازاته في مختلف المجالات فهو واهم. قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (غافر: 57). وهو برهان في غاية الصحة والقوة، قدَّمه الله للذين يجحدون ألوهيته وحقيقة عالم الغيب، وما يقع فيه من أحداث تتعلق بالإنسان، مثل: البعث، والنشر، والحشر، والحساب.[17] وهي القضايا التي لا يزال يجادل فيها الذين يُسمّون أنفسهم العلماء الطبيعيين اليوم، بل أكثرهم ينكرونها استناداً إلى الفلسفات المادية التي تحتضن علومهم، وتُشكِّل مبادئهم وتصوراتهم الكلية للكون والحياة.

فالإنسان دائماً بحاجة إلى الهداية الإلهية التي تضع أمامه الصورة الكلية للعالم المادي، والمعنى الأسمى لحياة الإنسان. والأسئلة الكبرى التي لا تغادر الوعي الإنساني، مثل: ما أصل الكون؟ ما مصيره؟ ما أصل الإنسان، ومعناه، والغاية من وجوده؟ هل توجد حياة أخروية؟ ما الخير؟ ما الشر؟؛ كل هذه الأسئلة وغيرها يعجز العلم عن تقديم أجوبة يقينية عنها لأنها تقع خارج نطاق إدراكه. ومع ذلك، فإن الكثير من التيارات العلمية المعاصرة تعمل على اقتحام هذه المجالات، وتُقدِّم أجوبة للناس، مُستعمِلةً قناع العلم، وهي في الحقيقة ليست سوى مجرد تخمينات يمكن كشف زيفها وتضليلها للناس بالعودة إلى مصدر الوحي. لقد اعترف بعض الباحثين أن الرؤية الكونية worldview هي مُكوِّنٌ

[16] Cohm, Thomas., *The Structure of Scientific Revolutions*, The University of Chicago Press, 1962, p.10.

[17] انظر تفسير الآية في:

– الرازي، **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، مرجع سابق، ج27، ص80.

من المُكوِّنات والأُسس التي يقوم عليها العلم، إلى جانب الواقعية realism، والمقولات القبْلِية presupositions، والدليل evidence، والمنطق logics، والمحدودية limits، والكونية universality،[18] ولكن أصلها لا يكون دينياً خالصاً، بل نابعاً من التراكمات العلمية، والتخمينات، والتصورات، والمعطيات التي تكتسبها وتطورها المجموعات البحثية في مختلف التخصصات (العلوم الطبيعية: النظرية، والتطبيقية). ولا شك في أن معرفة جزء من الكون المادي لا تكفي أبداً لمعرفة جُلِّه، أو حقيقته الكاملة؛ فالمعرفة الإنسانية تبقى محدودة مهما كبرت في أعين صُنّاعها، وأعين الذين يتأثَّرون بها إيجاباً وسلباً.

إن الرؤية الكونية لم تكن قطُّ مجرد تساؤلات كبرى، وأجوبة نظرية منعزلة عن أساليب التفكير والشعور والسلوك والحياة بصفة عامة؛ فهذه الأسئلة تُؤثِّر –حقيقةً– في كل لحظة يعيشها الإنسان، وفي كل نشاط يقوم به، بما في ذلك اكتساب العلوم، وتطويرها، ونقلها، واستخدامها في سدِّ حاجيات الإنسان وتعمير الأرض. ولأهمية هذا النوع من العلوم أو المعرفة، فقد وردت في القرآن الكريم إجابات لكل تلك الأسئلة الكبرى التي لا تنفصل عن وعي الإنسان وتفكيره؛ فقد ذكر القرآن الكريم أصل الكون أو العالم، وبيَّن بعض خصوصياته المجملة، مثل: الإتقان، والإحسان، والتوازن، والتسخير، والسنن، والنظام، والتقدير، والتعلق أو نظام الأسباب، والغائية أو القصدية، والأجل المسمى؛ وكلها مصطلحات قرآنية تُعْنَى ببيان العالم المادي، ووصفه، وعلاقته بحياة الناس.

ويرى بعض المفكرين المسلمين أن اعتماد الرؤية الكونية القرآنية في العلوم الطبيعية لا يعني فقط اعتماد البديل الإسلامي في التعليم والمعرفة، وإنما يعني عملاً يُمثِّل تقديم حلول جذرية للأزمات المعقدة التي أفرزتها الأنساق المادية المعاصرة، والتي تسيطر على مفاصل مؤسسات البحث العلمي وسياساتها واتجاهاتها في البحث. فقد أشار كمال حسن إلى أن موقع النظام التوحيدي في مجال العلم والمعرفة هو أهم خصيصة تُمَيِّز المعرفة الإسلامية (أو العلم الإسلامي) من غيرها، وأن كل ما يقابل ذلك من الأُطر، والفلسفات،

[18] Gauch, Hugh G. Jr. "Science, Worldviews, and Education" in Michael R. Matthews (editor), *Science, Worldviews and Education*. Springer Science+Business Media, B.V. 2009, p.32-33.

والأيديولوجيات، أو المرجعيات الدينية، أو شبه الدينية؛ كلها ليست سوى صور من الباطل falsehood forms of.[19]

إن شمول أساس التوحيد للمعرفة والعلوم يقع على أربعة مستويات أساسية، هي: مستوى المُعتقَد (العقيدة)، ومستوى الأحكام (الشريعة)، ومستوى الكيفيات (القيم الأخلاقية)، ومستوى المعلومات أو المعروفات. وبمقتضى هذه الروابط والاتصال بين التوحيد والمعرفة الإنسانية، يعمل الأول على توسيع مجال العلم إلى أوسع حدٍّ ممكن، ويوثق روابطه مع دلالة حياة الإنسان في العالم، بحيث إذا لم يكن ممكناً فصل حياة الإنسان عن عالم الغيب وما يحمله من خصوصيات وأحداث، فكذلك العلم من ناحية أولى، وبخاصة العلم الطبيعي الذي لا يمكن فصله عن مشهد عالم الغيب، ومثال ذلك: مسألة القصدية، والحكمة الإلهية في الخلق ونهاية العالم، وتحولاته الفيزيائية المستقبلية، ومسؤولية الإنسان وتبعية أفعاله.

3. أساليب التفكير الصحيح وطرائقه:

لم تقتصر هداية الوحي للإنسان على بيان السلوك السوي والسلوك السقيم، وإنما بيَّن له –قبل ذلك– أنماط التفكير السليم والمنحرف؛ فالسلوك دائماً يسبقه التفكير، وإن قلَّت درجته ونوعيته وتأثيره، في صورة تحقيق الإرادات وتجلياتها في الأعمال الظاهرة. وقد ذكر القرآن الكريم ما لا يقل عن عشرين نمطاً تُمثِّل القدرات الذهنية ومرونتها، التي منحها الله تعالى البشر لمعرفة الحق، والحقائق الواقعية التي تحيط بهم في حياتهم. غير أن الأهم من ذلك كله هو وضع الوحي نظاماً توحيدياً كلياً، يتشكَّل تحت ظله منطلق تلك الأساليب في التفكير، وأصولها، واتجاهاتها، وما يُميِّز بعضها من بعض داخل المجموعة الواحدة، أو ما يقابلها من أنماط التفكير السلبي أو المنحرف. وهو النظام الذي أشار إليه علماء الإسلام حين عرضوا العقيدة الإسلامية، فجعلوا التفكير في التوحيد، بتأمُّل خلق الله، وسيلة

[19] Hassan, M. Kamal. "The Necessity of Studying the Natural Sciences, from the Qur'anic Worldview" in M. Hashim Kamali et. al (Editors) *Islamic Perspectives on Science and Technology*, Springer Science+Business Media Singapore Pte Ltd (2016), p.37.

للذكر، والتقرُّب إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو بذلك فصل لا ينفصل عن التعبُّد. وقد وردت في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تحثُّ على هذا النمط من التفكُّر.[20]

وصور التفكير الإيجابية في القرآن الكريم تقابلها صور أخرى سلبية، فَصَّل في بيان أنواعها، وأغراضها، والعوامل التي تُسبِّبها من أحوال النفس الإنسانية، وشروط العمران البشري، وعوائده. فكما أن التفكير السليم هو وظيفة مُركَّبة تقوم به النفس الإنسانية بكُليتها، فإن هذا ينطبق أيضاً على التفكير السلبي وأصنافه؛ فهو يدل على تعطيل وظائف القدرات والمَلَكَات التي منحها الله تعالى الإنسان؛ تكريماً، وتكليفاً له.

ويوصف التفكير بالسلبية حين يركب (أو يحمل) على أنماط معيَّنة من الصفات التي قد تصل به إلى ثلاث محطات أساسية، تضم: مقدمة التفكير، وآنية التفكير، وما بعد التفكير. ومن الصفات التي أبرزها القرآن الكريم في هذه المسألة: "الكذب" في سورة البقرة (الآية 10)، و"الجحود" في سورة الأعراف (الآية 15)، و"المكر" في سورة فاطر (الآية 10)، و"النفاق" في سورة التوبة (الآية 77)، و"الصد" في سورة الأعراف (الآية 45)، و"الصدف" في سورة الأنعام (الآية 157)، و"الانصراف" في سورة التوبة (الآية 127)، و"التحسُّب" أو "التوهُّم" في سورة الكهف (الآية 104)، و"الظن الكاذب" في سورة الجاثية (الآية 24)، و"الريب" في سورة التوبة (الآية 45)، و"الكفر" في سورة البقرة (الآية 88)، و"الجهالة" في سورة الأنعام (الآية 54)، و"الضلال" في سورة النساء (الآية 167)، و"الزيغ" في سورة الصف (الآية 5)، و"الارتداد" في سورة التوبة (الآية 45).

4. منظومة القيم:

أصبح اعتبار القيم في البحث العلمي من أصعب المسائل التي تواجهها المؤسسات العلمية بسبب تأثير الأنساق الأيديولوجية المادية، التي كان دافعها الرئيس لتطوير العلوم تحقيق الربح المادي، والسيطرة الشاملة على شؤون الإنسان والموارد الطبيعية على حساب المكتسب القيمي الذي يحمي الإنسان، ويعطي وجوده معنىً روحياً. وهي الوجهة التي

[20] مشوش، صالح. "مقدمة في بنية التفكير العلمي وأصوله القبلية في القرآن الكريم"، **مجلة نماء**، س1، عدد2، 2017م، ص242-273.

أوقعت الإنسان نفسه تحت وطأة القهر والطغيان والتفاوت، وما نجم عنها من صراعات انتهت غالباً بإحداث دمار هائل في العمران البشري.

إن حضور القيم الأخلاقية في المجال العلمي وتوظيفه ليس مطلباً اختيارياً كما يظن بعض الدارسين، أو مطلباً هدّاماً للحيادية العلمية، وإنما هو ضرورة وجودية تلازم هذا النوع من النشاط الإنساني. فعندما فصل النهضويون الغربيون العلوم عن القيم بحجة التنزُّه والحيادية والموضوعية كما يُسمّونها، تحوَّلت العلوم إلى وسائل للدمار، وخرَّبت حياة الإنسان في الدنيا والمعاد؛ لأنها فصلت وجوده ونشاطه على الأرض عن خالقه، وعن الهدف الأسمى الذي خُلِق من أجله.

ومفهوم "العلم" الذي يرسمه الوحي يقع على مجال شامل واسع متداخل لا يمكن فصل أجزائه ومناطقه، وهو يخدم الإنسان ومقصد خلقه، ويعطي الحياة معناها الحقيقي، ويحفظ الفكر والتفكير والقدرات الذهنية والإدراكية؛ ما ينجي الإنسان من كل الانحرافات التي تجرُّ حياته إلى الشقاء الدنيوي والأبدي. وإن المُتتبِّع لمفهوم "العلم" في القرآن الكريم يجد أنه مرتبط أشد الارتباط بمفاهيم قيمية لا تقل أهميتها عن أهمية جميع المعلومات والمعارف المختلفة التي يمكن للإنسان تحصيلها؛ فالعلم هو أشبه بشجرة تنبت وتنمو في تربة الإيمان، والحق، والصدق، والخشية، والهدى، والشكر، والذكر، والفكر، والتقوى، والحكمة. وهذه المصطلحات جميعاً هي التي تُكوِّن المجال الدلالي القرآني Qur'anic semantics للعلم، وتُحدِّد معانيه المجردة وتطبيقاته العملية. فالمعلومات وحدها تبقى بشكلها الخام قبل دخولها في مجالها الأوسع الذي تُشكِّله مصطلحات القرآن التي ذكرناها، وبهذا يكون معنى المعرفة العلمية كباقي أصناف المعارف الأخرى التي تُشكِّلها دلالات ترابطية Relational meaning.[21]

[21] Izutsu, Toshihiko. *God and Man in the Qur'an: Semantics of the Qur'anic Weltanschauung,* Malaysia: Petaling Jaya, Islamic book Trust, 2nd reprint 2008, p.11.

5. خطاب التحفيز:

التحفيز لغةً هو الدفع، نقول: "حَفَزَ الشَّيءَ: دفعه من خلفه. وبالرمح: طعنه، وعن الأمر: أعجله، وأزعجه."[22] والمتأمُّل في نصوص الوحي يجدها تحتوي على منظومة من الخطابات التحفيزية، واستثارة الهمم لطلب العلم، والسعي إلى تحقيق أسبابه، ولا نجد لذلك نظيراً في أيِّ كتاب سماوي. ومن خصائص هذا التحفيز تجاوُز تأثيره دائرة الحياة الدنيا إلى سعة الآخرة وثوابها الأبدي. فالعلم من منظور الوحي هو من أهم الوسائل التي تجعل صاحبها أهلاً لتحصيل القربة من الله، ونيل رضاه في الدنيا والآخرة؛ إذ يُعَدُّ الوحي إحدى الطرائق الضرورية التي توصل الإنسان إلى معرفة الحق والتأمُّل والتدبُّر في خلق الله وآياته. فالعلم كما جاء في القرآن الكريم مُقدَّم على كل شيء، حتى عقيدة التوحيد. قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (محمد: 19). ونظراً إلى أهمية العلم في حياة المسلم؛ فقد استخدم القرآن الكريم أصنافاً عديدةً من أساليب التحفيز لطلبه في كل الأحوال، وترشيد مسلكه. ومن هذه الأساليب: الحث المباشر، والتعزيز الإيجابي (الثواب)، والقصص، والترغيب والترهيب، والتذكير بالمآلات والعقاب، وأسلوب الاستفهام والسؤال، والتصوير وضرب الأمثال، والموعظة. فكل هذه الوسائل تشترك في مِيزة ملاءمة الفطرة الإنسانية ومزاجها المتقلب، وتسدُّ حاجاتها، وتخاطب منطقها، وتستجيب للأحوال النفسية المختلفة، بحيث إذا اجتمعت هذه الوسائل والوسائط في الإثارة تبيَّن جلياً أنها تُشكِّل منهجاً شاملاً متميزاً في التحفيز.

ويتمتع أسلوب التحفيز والإثارة في الوحي (القرآن، والسُّنة) بحركة عمودية، تُمثِّل الانتقال من مستوى إلى آخر أعلى منه، في نظام يوافق المستويات الذهنية والأبعاد التكوينية للفطرة الإنسانية؛ من: الروح، والنفس، والجسم، بحيث يتحرك أفقياً ليناسب الأحوال التي تتعرَّض لها النفس الإنسانية. فكلَّما ارتقت نفس الإنسان إلى مستوى أعلى ارتقى معها أسلوب التحفيز والإثارة حتى تصل مرتبة رضوان الله، وهو أعلاها. وهو يتناسب أيضاً مع مستويات الإيمان الثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

---

[22] الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط8، 2005م، مادة: حفز، ص509.

وفائدة اعتبار هذه المستويات تدخل في شروط تحقيق فاعلية وسيلة التحفيز، فإذا لم يناسب التحفيز أحوال المُحفَّز فإنه لن يتحقَّق الهدف والغاية من التحفيز والإثارة. ولهذا السبب نجد أن القرآن الكريم والسُّنة النبوية يراعيان أشدَّ الرعاية هذه الجوانب التي يتوقف عليها تحقُّق مقصد التأثير والتغيير الإيجابي في تفكير الإنسان وسلوكه. والمُلاحَظ أيضاً أن نظام التحفيز في القرآن والسُّنة يتحرك في اتجاه أفقي ليستغرق المجال الحيوي لنشاط الإنسان، مراعياً فيه أبعاده النفسية والذهنية والسلوكية على المستوى الفردي والجماعي.

6. نظام الحماية الذهنية، وبيان مُعوِّقات العلم:

لم يكتفِ الوحي بتوفير ما ذُكِر من العوامل الإيجابية في نشأة التفكير العلمي، وإنما زاد عليها بوضع نظام الحماية الذي يُرشِد التفكير الإنساني، ويمنعه من الوقوع في أنواع كثيرة من الضلالات والأخطاء الكبيرة (النظرية، والعملية)، التي تُعْزى غالباً إلى استغناء العقل البشري عن هدي الوحي الإلهي، مثل تلك التي تُرَوَّج عن طريق بعض النظريات، ولا سيما نظرية دارون في التطور البيولوجي للكائنات والأنواع، والتي لا يزال بعض الباحثين المسلمين يَعُدّونها قانوناً كونياً مُفسِّراً لنشأة الكائنات الحية وتطورها، حتى إنهم يدَّعون استقرار هذه النظريات وتمكينها، وينفون احتمال صعود نظريات أخرى مختلفة مستقبلاً.[23]

وهذه الحماية لا نقصد بها العصمة التي جعلها الله مِيزة الأنبياء والرسل فحسب، بل المقصود هنا هو تجنُّب وضع فروض وتفسيرات كلية بناءً على تصورات غير صحيحة تبنّاها الفكر البشري بفعل الكسب المادي، أو التأثير المعنوي الخارجي (التأثير الأيديولوجي)، أو التمجيد لتجربة إنسانية مُضلِّلة، وقد يُعْزى ذلك إلى عوائق أخرى تتعلق بقدرات الإنسان ومحدوديتها.

ويضطلع القرآن الكريم بهذا الدور عن طريق بيان الأساليب الصحيحة في التفكير، وأُسسها، وأُطرها المنطقية التي تتناغم تماماً مع الفطرة الإنسانية السليمة، وكذا بيان

[23] Guessoum, Nidhal. "Islam and Science" in Steve Fuller (editor), *The Customization of Science The Impact of Religious and Political Worldviews on Contemporary Science,* UK: Palgrave Macmillan, 2014, p.29.

أساليب التفكير السلبي، وأنماطه، والعوامل الذاتية والخارجية التي تكون سبباً في ظهوره على المستوى الفردي أو الجماعي. ويعتمد الوحي على جملة من المناهج والطرائق لتعليم الإنسان التفكير السلمي، منها: استخدام القصص، والتصوير، والتمثيل، وتعيين الحالات الواقعية المناسبة، مثل ذكره قصة ذي القرنين في سورة الكهف (الآيات 83–98) التي تقابل في المعنى قصة قارون في سورة القصص (الآيات 76–81)، في دلالتهما على مفهوم "العلم"، ومصدره، وطريقة توظيفه، فضلاً عن استخدام مبادئ التفكير الفطري التي بثَّها الله تعالى في الفطرة الإنسانية، وهي قوانين التفكير السليم التي تجمع الناس في شعورهم وتصوراتهم وسلوكهم، بغضِّ النظر عن اختلاف الشروط العمرانية التي يعايشونها.

ثالثاً: وظيفة المصطلح القرآني في مجال العلوم الكونية

يُقصَد بالمصطلح القرآني "كل الألفاظ الواردة في نصوص القرآن الكريم، التي تتضمن مفهومات خاصة، تنطلق من دلالاتها اللغوية العامة، وتطرد في سياقاتها ومواقعها المتنوعة؛ لتكشف عن الرؤية القرآنية الكلية المتميزة المُؤسِّسة للدين، والمرتبطة بالألوهية، والإنسان، والكون، والحياة."[24] وهذا المصطلح ليس كغيره من المصطلحات؛ فهو يحمل مميزات الوحي الكمالية بعينها؛ من: القوة، والدقة، والتحديد، والوضوح، واليقين، والشمول، والمرونة... فهي كلمات ربانية مرتبة ومُركَّبة ومنسقة ومهيمنة. وقد جاد المتنبي في وصف القرآن الكريم حين أنشد:

كالبدرِ منْ حيثُ التفَتَّ رأيتَه يُهدي إلى عينيكَ نوراً ثاقبا
كالبَحْرِ يَقذِفُ للقَريبِ جَواهِراً جُوداً ويَبْعَثُ للبَعيدِ سَحائِبَا
كالشمسِ في كبدِ السماءِ وضوؤُها يغشى البلادَ مشارقاً ومغاربا

لكن حصول تلك المحاسن والأنوار في الأعيان –كما ذكر الراغب الأصفهاني– يشترط توافر البصائر الجلية، والأيدي الزكية، والنفوس النقية. وقد شبَّه تحصيل معاني ألفاظ القرآن ومصطلحاته بـ"تحصيل اللَبِن في كونه أول المعاون في بناء ما يريد أن

[24] زيان، جميلة. "المصطلح القرآني والتنمية الذاتية: قراءة في مفهوم التزكية نموذجاً"، المؤتمر العالمي الرابع للباحثين في علوم القرآن، مؤسسة البحوث والدراسات العلمية، المغرب، فاس، 2017م، ص299.

يبنيه."[25] ولأهميتها في فهم معاني القرآن، فقد نبَّه العلماء على ضرورة فهم معاني الألفاظ قبل غيرها، وفي ذلك يقول الراغب الأصفهاني: "إن أول ما يحتاج أن يُشتغَل به من علوم القرآن الكريم العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لـمَن يريد أن يُدرِك معانيه، كتحصيل اللَبِن في كونه أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه."[26] إلى جانب استصحاب هذه الصفات التي تُمَيِّز المصطلح القرآني.

وقد تظهر مميزات أخرى -عند الانتقال من مجال إلى آخر- في توظيف هذه المصطلحات لغرض تنمية المعرفة الإنسانية، وتطويرها، أو تفعيل دلالاتها في دوائر تطبيقية خاصة، مثل مجال العلوم الطبيعية. ففي داخل هذه الدائرة التخصصية، تناسب وظيفة المصطلح القرآني هذا المجال عن طريق عمليات الوصف، والإشارة، والتكميم أو التقدير، والتصوير، وربط الحوادث بأسبابها، والتذكير بعظمة الخالق الذي يُدبِّر كل شيء.

وفي ما يخصُّ الوصف، فقد اشتمل القرآن الكريم على آيات كثيرة تصف المظاهر الكونية، مثل: الشمس والقمر، والليل والنهار، والجبال، والأرض، والماء، والحديد، والجنين، إضافةً إلى الوصف المادي والوظيفي. وفي هذا السياق، يُقدِّم الوحي التقدير العددي (مثل العدد 7) في تحديد عدد السماوات، في حين نجد أن التصوير يتجلّى بأروع صوره في وصف الجبال، في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (النمل: 88).

ولم يكتفِ القرآن الكريم ببيان بعض خصائص ظواهر العالم المادي، وإنما عرض للنظام الكلي الذي يربط الخلق العظيم، مثل: نظام الخلق في سورة الأنعام (الآية 73)، وفي سورة إبراهيم (الآية 19)، ونظام الأسباب في سورة الأنبياء (الآية 30)، وفي سورة فصلت (الآية 39)، ونظام التسخير في سورة الأعراف (الآية 54)، ونظام التقدير في سورة الفرقان (الآية 2)، ونظام الإحكام في سورة النمل (الآية 88)، ونظام التوازن في سورة الرحمن (الآية 7)، والنظام الغائي في سورة الزمر (الآية 5). وهذه الأنظمة تُمثِّل

[25] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص54.

[26] المرجع السابق، ص54.

الأُطر الكلية التي يسبح فيها الكون أجمع وكل جزئياته، فلا ينفلت عنه أيُّ شيء. وعلى هذا، فإن العلوم والمعاني والحقائق التي يُقدِّمها الوحي عن العالم تُشكِّل رؤية كونية شاملة مميزة عن ماهية العالم، وأصله، ونظامه، والعلائق التي تربط مظاهره وعلاقته بالعمران البشري وتأثيراته فيه، وصيغ التوازن وأسباب الخلل وما يترتب عليها، والقيم التي تُؤطِّر وتُنظِّم النشاط الإنساني فيه.

1. مسالك استخدام المصطلح القرآني في تصميم الكتاب المدرسي:

إن استخدام المصطلح القرآني في تصميم الكتاب المدرسي للعلوم الطبيعية ليس أمراً معقداً أو عملاً شاقّاً كما يتصوره الكثيرون، وإنْ كان تحقيق ذلك يتطلب بذْل جهود كبيرة مستمرة. أمَّا التصور السلبي بهذا الشأن فمردُّه الغيبوبة التي أصابت العقل المسلم ونظامه التعليمي تحت وطأة الأيديولوجيات، ونظم التفكير المادي اللاديني secularism الدخيل. ومرتكز هذه البشارة العلمية هو التوافق والتناغم المتميز concordance الذي يجده الباحث بين نصوص الوحي والتفكير العلمي واكتشافاته النظرية وبعض تطبيقاته العملية.[27] بيد أن توظيف المصطلح القرآني في هذا المجال –إضافةً إلى المعرفة الكافية في مجال التخصص– يحتاج إلى قدرات ومهارات خاصة لتحديد الكيفيات والأهداف لهذا التوظيف، واقتناص الفرص ولحظات التقاء الدين ودرس العلم الطبيعي، مع مراعاة معاني الوحي ودلالاته، وطبيعة المادة العلمية الملقاة، ونفسية الطالب، وقدرته على استيعاب العالم المادي المُشاهَد، وربطه بالمعاني والحقائق النظرية عن الحياة، فضلاً عن استشراف نتائج العملية المترتبة على هذا التوظيف.

وفي هذا السياق، فإن تصميم الكتاب المدرسي لمادة الفيزياء يقوم على مجموعة من الأدوات التعليمية، تضم: المقدمة، والرؤية الكونية التوحيدية، والمصطلح القرآني، ونافذة التاريخ، ونافذة الذكر والتفكُّر والتدبُّر، ونافذة أسماء الله الحسنى، ونافذة الحكمة، ونافذة النقد.

---

[27] Atighetchi, Dariusch. "Koran and modern science", in: *Islamic Bioethics: Problems and Perspectives*. Springer 2007, p.327-351.

أمَّا المقدمة فلا تخفى على العالم والباحث والمدرس أهميتها في تصميم الكتب المدرسية والتعليمية بوجه خاص؛ فهي المفتاح أو الباب الأول الذي يستقبله ذهن الطالب، ويُعزِّز إرادته في تحصيل العلم. وقد شهد تاريخ العلوم الإسلامية أحداثاً ومواقفَ أثَّرت فيها بعض المقدمات في نمو العلوم أكثر من مضمون الكتاب كله، مثل مقدمة ابن خلدون التي تقع في نحو (400) صفحة؛ إذ تحتوي المقدمة على مجموعة من الأدوات التي تُؤثِّر تأثيراً كبيراً في المُتعلِّم، مثل: الدعاء، وآداب طلب العلم، والتعريفات، والكليات، والأصول، والدراسات السابقة، والمنهجية، والمحتوى، وأسباب التأليف، وأوجه الاستفادة من محتوى الكتاب. وتضم هذه الأدوات الفرعية كلها الرؤية الكونية لصاحب الكتاب، التي تتجلّى بتعظيم الله، وتوحيده، والثناء على نعمه وفضله، والتزام شريعته بالسعي نحو الإصلاح، والإفادة، والابتعاد عن الفساد والإفساد، والتوبة عن الزلل والخطأ، وغير ذلك من الإشارات التي تقع كلها في هذا الاتجاه.

وهذا النمط من التأليف لم يقتصر فقط على الكتب الشرعية والعلوم التي تخدمها مباشرةً، مثل اللغة والتاريخ، وإنما وُجِد أيضاً في كتب العلوم الطبيعية، مثل: الجبر، وعلم الهيئة، والجغرافيا، والطب، وعلوم النبات، وإنْ كانت صيغها مختلفة، وحجمها أصغر من غيرها. من ذلك –مثلاً– مقدمة أبي العز بن إسماعيل الجزري (توفي 1206م/ 602هـ) في كتابه "الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل"، وهو كتاب في الهندسة الميكانيكية باللغة العلمية المعاصرة؛ إذ يقول فيها: "الحمد لله مبدع صنعه في السمائيات، المودع أسرار حكمه في الأرضيات، فهي نسخة من عالم ملكوته، ودليل قاطع على جبروته، أحمده على ما علّم، وأستزيده من فواضل النعم، وهي مطلوبات الحكم ... ."[28]

ومثلها في ذلك مقدمة محمد بن موسى الخوارزمي (توفي 232هـ) في كتابه "الجبر والمقابلة"؛ إذ يقول فيها: "الحمد لله على نعمه بما هو أهله من محامده التي بأداء ما افترض منها على مَن يعبده مِن خلقه يقع اسم الشكر، ويستوجب المزيد، ونؤمن من الغير إقراراً بربوبيته، وتذلُّلاً لعزته، وخشوعاً لعظمته. بعث محمداً صلى الله عليه وعلى آله

[28] الجزري، أبو العز بن إسماعيل بن الرزاز. **الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل**، سوريا: د.ن، مخطوطة معهد التراث العلمي العربي بحلب، ص3.

وسلم بالنبوة على حين فترة من الرسل ... ألَّفْتُ من كتاب "الجبر والمقابلة" كتاباً مختصراً لِلَطيف الحساب وجليله، لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم، وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجارتهم ... مُقدِّماً لحُسن النية فيه، وراجياً لأنْ ينزله أهل الأدب بفضل ما استودعوا من نعم الله تعالى، وجليل آلائه، وجميل بلائه عندهم منزلته، وبالله توفيقي في هذا، وفي غيره، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ... ."[29]

ومثال آخر على هذه المقدمات ما كتبه أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي (توفي 1158م/ 553هـ) في مقدمة كتابه "الفلاحة"، حين أراد تحديد مقاصد صناعة الزراعة: "... مَن يرد أن يتخذ هذا الفن صنعة يصل بها بحول الله إلى معاشه، ويستعين بها على قوته وقوت عياله وأطفاله، وجد فيه حاجته، وبلغ فيه إرادته، واستعان بذلك على منافع دنياه ومصالح أخراه بتوفيق الله إياه؛ إذ بالغراسات والزراعات تكثر بمشيئة الله الأقوات، وقيل إن ذلك ما أشار النبي بقوله: (اطلبوا الرزق في خبايا الأرض.)"[30]

فعن طريق ذلك تكون بداية إعداد الكتاب المدرسي لمادة الفيزياء؛ بصياغة مقدمة تحوي بعض العناصر الآنف ذكرها، ولا سيما إجلاء عظمة الله، والرؤية الكونية التوحيدية، وما يلزم عنها في العلم التخصصي، وبعض الأصول المتعلقة بالموضوع. بعد ذلك يكون إدخال وعرض المصطلحات القرآنية المتعلقة بموضوعات المادة العلمية جهداً متميزاً؛ لتقريب ذهنية الطالب إلى مصادر الوحي. ويتراوح عدد المصطلحات القرآنية التي يمكن إيجادها لكل فصل ما بين (1–3) مصطلحات، مع ذكر موقعها، وما يقابله من اللغات الأخرى، مثل: الإنجليزية، أو الألمانية. وقد احتوى القرآن الكريم على مئات من المصطلحات التي تُعَدُّ مفاهيم بنائية مركزية في العلوم المعاصرة، مثل: الحركة، والموج، والسوائل، والطاقة، والضوء، إضافةً إلى مئات من الآيات أو الظواهر الكونية التي استُعمِلت براهين وبيِّنات موضوعية مادية لعقيدة التوحيد وشريعته.

---

[29] الخوارزمي، **كتاب الجبر والمقابلة**، مرجع سابق، ص15–16.

[30] الإشبيلي، أبو زكريا يحي بن محمد بن أحمد بن العوام. **كتاب الفلاحة**، طبعة مدريد، 1802م، ص1–2.

أ. اللغة العلمية والمصطلح القرآني:

لا شك في أن مستوى المصطلح القرآني أعلى منه للمصطلح العلمي الوضعي؛ فالأول يقوم على لغة الوحي ذات المصدر الإلهي، إذ إن مصدره خالق الكون، في حين أن الثاني ناجم عن تجربة بشرية محدودة، وإنْ كانت في بعضها تُمثِّل مظاهر طبيعية واضحة، وتصفها، وتصورها مباشرةً؛ وذلك أن علاقة الإنسان بالعالم الخارجي محدودة المعرفة والإحاطة والتحكُّم. وعلى هذا، تتضح بعض الفوائد العلمية من إدخال مفاهيم القرآن الكريم في مجال النص العلمي؛ فهذه العملية تُمثِّل انفتاح المحدود على غير المحدود، والمتناهي على اللامتناهي، والظني على اليقيني، والجزئي على الكلي، والمتغير على الثابت، إلى غير ذلك من الصفات التي يمكن إضافتها، وهي كلها تُعبِّر عن حركة إيجابية في الوعي الإنساني العلمي.

وحين يكون الموضوع خاصاً بكتاب الفيزياء، فإنه لا يكاد يخلو أحد موضوعات هذا التخصص من مصطلح أو اثنين أو أكثر، تربطه علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالمصطلحات القرآنية. والمصطلحات القرآنية في مجال الفيزياء تدل على آيات كونية تُذكِّر الإنسان بالخالق والصانع وصفاته الكمالية؛ فهي أدوات فاعلة في جذب الطالب إلى الوحي الإلهي، وإلى العلوم التي يضمها عن الكون ونظامه، والإنسان وحياته. إنها تُنشِئ انسجاماً متيناً في ذهنية الطالب، وتُقوِّي ثقته في العلوم التي يدرسها، ويزداد يقينه بالله تعالى. ومن ذلك أن مَلَكَة الإيمان وأحوال اليقين تتقوَّى بوجود روابط علمية تجمع بين مضمون الكتاب المدرسي والوحي. ولا يتوقف دور المصطلح القرآني عند هذا الحدِّ، وإنما يمنح الطالب قدرة عجيبة على التأمُّل والتفكُّر والسؤال والتحقُّق في ما يتلقاه من العلوم المتخصصة. فالمواد التعليمية التي تُسمّى اليوم علوماً طبيعيةً ليست بأفضل حال كما يدَّعي الكثير؛ فهي ليست عسلاً مُصفّى، بل مادة أمشاج وأخلاط.

وتأسيساً على ذلك، يصبح المصطلح القرآني في مادة الفيزياء أداة منهجية وأسلوب تفكير لا يمكن الاستغناء عنه في التعليم الإسلامي؛ إذ يُوفِّر للطالب الحماية اللازمة

لمواجهة الشحنات الأيديولوجية الفلسفية والعلمية،[31] والتصورات الكلية غير الصحيحة، والمقاصد الانتهازية، والنظرات التجزيئية التي تعانيها النظريات والأنساق المعرفة العلمية المعاصرة. فالمصطلح القرآني يرتقي بطالب العلم، ويرفع وعيه إلى آفاق علمية واسعة تُعِينه على استيعاب المعرفة العلمية، وفهمها في صورتها الشاملة، والابتعاد عن النظرات التجزيئية التي تضره. فالعلم في حقيقته ليس مجرد معلومات فحسب، بل هو منهاج في التفكير، وإصدار الأحكام، ونمط في السلوك، وأسلوب الحياة.

وفي هذا السياق، يعمل المصطلح القرآني على تذكير الطالب بعظمة الخالق، وعلاقته بالعالم الذي يدرس ظواهره لدفع شبهات الفلسفات المادية في العلم والعالم المبثوثة في الكتاب المدرسي التقليدي السائد. ومن ذلك تصور المادة بوصفها هيولى قديماً، قائمة بذاتها، أزلية، لا بداية لها ولا نهاية. ومن ذلك أيضاً تقنين بعض أصحاب هذه الفلسفات قانوناً لحجم الطاقة المستخلصة من المادة، يشبه تماماً التصور الوثني للرب والكون، مُدَّعين فيه أن: "الطاقة التي تستخرج منها محفوظة، ويستحيل خلقها، كما يستحيل تدميرها، بل يمكن فقط تحويلها من شكل إلى آخر."[32]

وهكذا تتطور شخصية الطالب، ويقوى وعيه العلمي بناءً على أسس التكامل بين الدين العلم؛ إذ تكون شخصيته بمنأى عن الصراع الفكري الذي يتحول إلى صراع نفسي بسبب الإخفاقات التي تحدث عند محاولة الإجابة عن الأسئلة الدينية، عن طريق المعرفة العلمية، أو فهم المعرفة العلمية وتطبيقاتها الإيجابية والسلبية وَفْق هداية النصوص الدينية. فالمصطلح القرآني يحمي الفكر والتفكير من أنواع التصورات الباطلة التي حوَّلت الإنسان إلى وحش ضائع لا يُدرِك معنى الحياة ومصيره فيها. قال تعالى في وصف أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ (آل عمران: 191).

إن حضور المصطلح القرآني في نص كتاب العلوم الطبيعية ليس تطفُّلاً، وإقحاماً، وعائقاً، وتكراراً، وتعقيداً، وجموداً، وقيداً، وإنما هو بناء، وهدي، وبسط، ونمو، وتحفيز،

[31] Grant, John. *Corrupted Science: Fraud, Ideology and Politics in Science*, iBooks. Imago Publishing, 2008, p.265.

[32] Serway, Raymond A., *College Physic***s**, USA: Cengage Learning, 9th ed. 2010, p.146.

وبيان، ودليل، وحجة، وبرهان، وسلطان؛ ما يُمكِّنه من إثراء القضايا العلمية عند طرح فضاء العلاقات التي تربط بين المُتعلِّم والعلم والخالق وحياة الناس. فالعلم منحة ربانية تروم تحقيق الاستخلاف، وأداء الأمانة، وتحقيق القرب من الخالق بالعبادة والطاعات. ولو تأمَّلنا سورة العلق لوجدنا أنها بدأت بفعل "اقرأ"، وانتهت بأمر "السجود" و"الاقتراب". وبذا تكون المعرفة العلمية الملقاة ليست مجرد معلومات جامدة، وإنما معرفة حية شاملة غير مجزَّأة، ينتج عنها نموٌّ سويٌّ لشخصية الطالب الذي سيصبح يوماً ما لبنة من لَبِناتِ المجتمع، وأساساً من أسسه.

إن كثيراً من الأسئلة التي يطرحها العقل البشري لا تجد إجابات في تراكمات المعرفة العلمية وتخصصاتها؛ نظراً إلى وقوع هذه الأسئلة خارج نطاق تلك العلوم. وفي حال ادَّعى بعض أصحابها قدرة العلم على الإجابة عنها، فإن هذه الإجابات تبقى تخمينات لا يصحُّ أن ترتقي إلى مرتبة اليقين لفقدان الدليل. عندئذٍ يكون الوحي هو المصدر المعرفي الوحيد الذي يُقدِّم الإجابات، ويطمئن السامع لها بتحقُّقها بلا ريب. ومثال ذلك الأسئلة التي تتناول مصير حياة الإنسان في العالم المادي المُتغيِّر، والنظام الكوني وتوازنه، وأشكال نهاية العالم المادي، وغير ذلك من المسائل التي تقع أطراف منها خارج نطاق نظريات العلوم الطبيعية وتطبيقاتها.

ب. نافذة التاريخ:

لا أحد يمكنه أن يُنكِر فضل تاريخ العلوم على تطور الوعي والمعرفة العلمية نفسها؛ فهذه المادة تُعَدُّ إحدى النوافذ المهمة التي يطلُّ منها العلماء والباحثون على مراحل تشكُّل المعرفة العلمية، وتجارب العلماء الناجحة والفاشلة، والأصول المعتمدة، والمناهج المتعبة، والحيثيات الاجتماعية والثقافية التي أسهمت في ظهور المعارف العلمية أو تعثُّرها. وهذه النافذة هي حلقة وصل لتعرُّف جهود الأولين في بناء المعرفة العلمية وتراكمها، وقد استُخدِمت في الكتاب المدرسي التقليدي لترسيخ هيمنة النظرة الأحادية والمركزية الأوروبية أو الغربية، بحيث أصبحت الكتب المدرسية العالمية المعتمدة لا تُحْسِن ذكر أسماء العلماء والمفكرين الذين لا ينتمون إلى دائرة الحضارة الغربية. فالمرحلة التي تبوَّأ فيها المسلمون قمة العطاء العلمي، والتي امتدت إلى أكثر من (600) سنة، يلحقونها بالعصر الوسيط

الظلامي dark ages –كما يُسمّونه في أدبياتهم– وهو العصر الذي عانت فيه أوروبا الكثير من الويلات، وقد أشار إلى ذلك مالك بن نبي في حديثه عن النزعة الانتقائية للتاريخ عند الإنسان الأوروبي؛ إذ قال: "فالتاريخ والحضارة عنده يبدآن في أثينا، ويعرجان إلى روما، ويختفيان فجأةً لمدة تزيد عن ألف سنة، ثم يعودان للظهور خلال النهضة الأوروبية، في باريس أو لندن. وماذا عن العصور التي سبقت أثينا؟ إنه الفراغ. وماذا عن المدة التي تفصل بين أرسطو وديكارت؟ إنه الفراغ ... إنها نظرة تُضلِّل النزعة الإنسانية الغربية منذ المنطلق."[33]

ووظيفة هذه النافذة هي التعريف بالعلماء المسلمين الذين أسهموا في الاكتشافات في مجال العلوم الطبيعية، وعملوا على تطويرها ونقلها. فقد تعمَّد الغرب ومدارسه الفكرية والفلسفية والعلمية تهميش نحو (800) سنة من جهود المسلمين وإخفاءها. ولم يعترف بهذا الجهد الحضاري الضخم سوى طائفة قليلة من المُنصِفين، مثل جورج سارتون الذي اختار أن يُسمِّي بعض قرون الإنجازات العلمية بأسماء علماء مسلمين؛ فعيَّن جابر بن حيان للنصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، والخوارزمي للنصف الأول من القرن التاسع، والرازي للنصف الثاني من القرن التاسع، والمسعودي للنصف الأول من القرن العاشر، وأبا الوفاء محمد بن العباس البزجاني (توفي 998م) للنصف الثاني من القرن العاشر، والبيروني للنصف الأول من القرن الحادي عشر، وعمر الخيام للنصف الثاني من القرن الحادي عشر.[34]

وقد اجتهد بعض الباحثين المسلمين في إبراز هذا الدور من خلال أعمال متميزة، مثل تلك التي أشرف عليها رشدي راشد في "موسوعة تاريخ العلوم العربية" (تتألَّف من ثلاثة أجزاء)، والتي شملت ميادين عدَّة، منها: الهيئة، والآلات، والميقات، والجغرافيا، والرياضيات، وعلوم البحار، والمناظر، والبصريات، والجبر، والهندسة المدنية، والميكانيكا، والكيمياء، وعلوم الحياة، والطب، والفلاحة، وغير ذلك.[35]

---

[33] ابن نبي، مالك. **في مهب المعركة**، دمشق: دار الفكر، د.ت، ص160.

[34] Sarton, George. *Introduction to history of science*, Carnegie Institution of Washington, 1947. volume 1.

[35] نَشر الموسوعة كلٌّ من: مركز دراسات الوحدة العربية، ومؤسسة عبد الحميد شومان، 1998م.

إن التأثير الإيجابي الذي قد تُحقِّقه نافذة التاريخ في الكتاب المدرسي هو على وجهين؛ الأول: تصحيح النسخة المتحيزة لتاريخ العلوم التي تجعل المركزية الأوروبيةEurocentrism أو التغريب Westernization أصلاً حصرياً للإشعاع والتطور العلمي في العالم. والثاني: تعريف الطالب بإسهامات العلماء المسلمين وإنجازاتهم؛ لما يترتب على ذلك من سلوك إيجابي، مثل: تقدير جهود العلماء السابقين، ومحاكاتهم في الثقة في النفس، والإيمان، والصبر، والاجتهاد، وإتقان العمل، والانفتاح على الحضارات الإنسانية.

ت. نافذة الذكر والتفكُّر والتدبُّر:

يعود أصل هذا التركيب الثلاثي لمفاهيم القرآن (الذكر، والتفكُّر، والتدبُّر)[36] إلى ما ذكره الله تعالى في وصف أصناف من صفوة الناس علماً وأحوالاً، وهم أولو الألباب: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (آل عمران: 190-191).

وتُمثِّل العلوم -على اختلاف أنواعها ومجالاتها، ومن بينها الفيزياء- منابر من نور تُذكِّر الإنسان بفضل الله عليه، وتُمكِّنه من إدراك ذلك، وترفع قدره روحاً، وفكراً، وسلوكاً. لكن هذه الثمرة يسبقها شرط ممارسة التفكُّر والاستقامة فيه؛ لذا كان من أبرز أهداف التعليم الإسلامي توجيه المُتعلِّم إلى دائرة هذا النشاط الفاعل الذي تنمو فيه المعرفة، وتستقيم في الروح، وتُشكِّل شخصية فريدة سمّى القرآن أصحابها بأُولي الألباب.

---

[36] يدل الذّكر على معانٍ عدَّة، منها: الصلاة، والدعاء، وطاعة الله وشكره، والتسبيح، وتمجيد الله وتهليله، وقراءة القرآن. وذكر الراغب الأصفهاني (توفي 425هـ) أن "الذكر تارة يقال، ويراد به هيئةٌ للنفس بها يمكن للإنسان أنْ يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، وذكر يقال اعتباراً باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان." انظر:

- الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٣٢٨. أمَّا التدبُّر فعرَّفه الجرجاني (توفي 816هـ) بأنه "عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكُّر، إلا أن التفكُّر تصرُّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبُّر تصرُّفه بالنظر في العواقب." انظر:

- الجرجاني، على محمد السيد الشريف. **معجم التعريفات**، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، القاهرة: دار الفضيلة، 2004م، ص49.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تحثُّ الإنسان على السعي وراء هذه الأحوال الربانية في سياق العلم، وهو يستخدم في هذا السياق صوراً طبيعيةً وآياتٍ ملموسةً تُقوّي انتباه الإنسان إلى فضل الله وكرمه عليه؛ ففي الآية العاشرة من سورة الأعراف استُخدِمت صورة الأرض، وفي الآية الرابعة عشرة من سورة النحل استُخدِم البحر وما يحويه من منافع، وفي الآية الثالثة والسبعين من سورة القصص استُخدِم الليل والنهار، وفي الآية السادسة والأربعين من سورة الروم استُخدِمت الرياح. ولم يكتفِ القرآن الكريم باستخدام هذه المظاهر والآيات الكونية بوصفها وسائل للتأثير في تفكير الإنسان وسلوكه، وإنما كان يُوجِّهه أيضاً إلى معرفة النظام الكلي الإلهي الذي تخضع له هذه الظواهر، مثل نظام التسخير الذي تجري عليه كل المنافع التي يحصل عليها الإنسان وغيره من الكائنات.

إن تذكير المُعلِّم وتوجيه طالب العلم إلى هذه القيم الروحية الثلاث هو أشبه بتأطير أسلوبه في التفكير وتنظيمه، ضمن الرؤية التوحيدية التي تجعل الخالق في موقعه، والعالم والمخلوقات في موقعها، وهو يُبيِّن –من وجهة يقينية– العلاقة بين الخالق والمخلوقات؛ جامدة كانت أو حية. فالتفكير نشاط إنساني لا يجب أن يبتعد عن مقصد الحياة الكلي أو ينفصل عنه، وهو عبادة الله وحده. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات: 56). أمَّا تحويل تفكير المُعلِّم والمُتعلِّم في الفيزياء إلى إطاره الأصلي التوحيدي فهو تغيير تترتب عليه نتائج كثيرة، أهمها تصحيح الرؤية الكونية التي يقوم عليها الكتاب المدرسي التقليدي (المستورد، أو المترجم) من مصادر غربية، بوصف ذلك خطوة أُولى نحو إنتاج كتاب مدرسي إسلامي أصيل يلتزم بخصوصيات العلم وقيمه في الإسلام، إضافةً إلى ما توصَّلت إليه العقول البشرية من معارف، ومهارات، وصنائع، وممارسات تقنية، واكتشافات حديثة، مستفيدةً ممّا أودعه الله تعالى في الكون من نعم وخيرات.

ث. نافذة أسماء الله الحسنى:

لا شك في أن لوجود الأسماء الحسنى في الكتاب المدرسي وقعاً وتأثيراً خاصاً في نفسية الطالب؛ فهذه الأسماء هي صفات كمالية للخالق، تعكس في معانيها فعل الله وأمره في الخلق، بما في ذلك الكون والإنسان. وهي أصل من أصول العقيدة الإسلامية.

فـ"أصل العلم ومقصوده والمراد منه؛ هو علم التوحيد الخالص؛ وهو معرفة الله عزَّ وجلَّ، وتمييز الخالق من المخلوق، وتنزيه الله عمّا سواه، فذلك هو الدين القيِّم والصراط المستقيم."[37] والعلم المادي الذي هو موضوع مادة الفيزياء يُمثِّل نوعاً من التجلّي لصفات الله الكمالية (ليس للذات الإلهية كما تعتقد بعض الديانات الوضعية والمنحرفة بفكرة الحلول). فثمَّة جملة من أسماء الله الحسنى لها علاقة مباشرة بالعالم الفيزيائي ونظامه، منها: الخالق، والقادر، والحفيظ، والملك، والمصور، والعليم، والقيوم، والنافع، والحكيم، والخبير، والبارئ، والحق، والنور.

إن ظهور أسماء الله الحسنى في ثنايا كتاب الفيزياء المدرسي يبدو أشبه بإشارات تنبيهٍ وتذكيرٍ للطالب والمُعلِّم معاً بفضل الله ونعمه؛ ما يفضي إلى تعلُّق الوعي بالخالق، ونموه بنمو المعرفة العلمية، وما يتطلَّع إليه الطالب من عجائب التوازن والنظام والسنن التي بثَّها الله في الكون. وهكذا يمكن تجاوُز جفاء الكتاب المدرسي التقليدي الذي يُسبِّب تغييباً ونسياناً غير طبيعي للخالق. والعجيب أنه في الوقت الذي غُيِّب فيه اسم الله، تجد هذه الكتب تعجُّ بأسماء البشر (العلماء)، وفي كثير من الأحيان لا يكتفي مؤلِّفو هذه الكتب بذكر أسمائهم فحسب، بل تُنسَب إليهم القوانين التي وضعها الله في الكون، مثل: قانون أرخميدس desArcheme، وقوانين الجاذبية التي نُسِبت إلى إسحاق نيوتن Isaac Newton، وقانون علاقة ضغط الغاز بحجمه الذي نُسِب إلى روبرت بويل Boyle Robert، وقانون المرونة الذي نُسِب إلى روبرت هوك Hooke Robert. وقائمة الأسماء هذه لا تضم حتماً المخترعين والمكتشفين المسلمين الذي سبقوا الأوروبيين بقرون كثيرة في العطاء العلمي.

إن توظيف أسماء الله الحسنى في كتاب العلوم المدرسي لا يعني إخْلاء حيِّزٍ لها في أوراق الكتاب، وإنما هو تكوين وتعليم للطالب، وإعانة له على فهم علاقة الخالق بالعالم المادي. فكثير من أصحاب فلسفات العلوم القديمة (اليونانية) والحديثة (النهضة الأوروبية) شوَّهوا هذه العلاقة في ظل تأثير الديانات الوثنية الوضعية، بحيث وقعوا بين

[37] ابن تومرت، جمال الدين محمد. **كنز العلوم والدر المنظوم في حقائق علم الشريعة ودقائق الطبيعة**، تحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، القاهرة: الآفاق العربية، 1999م، ص24.

فئتين ضالتين: الأولى تُنكِر وجود الخالق، والثانية تُحيِّد أمره وربوبيته في الكون، وتُسمِّيه – حاشا لله– المحرك الذي لا يتحرك unmoved mover كما جاء على لسان أرسطو[38] (نظام المقولات، والمادة الصورة، والقوة والفعل، والعقل الفاعل، والفيض والتطور الطبيعي).

ج. نافذة الحكمة:

الحكمة هي من المفاهيم القرآنية التي ربطها الله تعالى بالقرآن الكريم (في سورة البقرة، الآيات: 129، 151، 231؛ وفي سورة آل عمران، الآية 48؛ وفي سورة الجمعة، الآية 2)، وهي الخصلة التي جعل الإتيان بها يعني خيراً كثيراً. قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: 269). فالحكمة مفهوم غني بالمعاني التي يجتمع معظمها في تحقيق الإتقان، ومنع حدوث الفساد.[39] وقد ذكر ابن تومرت (توفي 524هـ) الحكمة في سياق العلوم الطبيعية، وعرَّفها بأنها: "معرفة ما أودع الله في علوم الطبيعة من المصنوعات الجاريات بالانفعالات الروحانيات والجسمانيات العلوية والسفلية المقهورة بقدرة رب الباريات، المسخرات منه بحكم الإرادات والمسببات، وما دبَّر في ذلك من استخراج الأمور الغامضات الخافيات والجاليات، وسائر العلوم الحقيقيات، وقدَّر في ذلك من المنافع والمضرات والسعادات والشقاوات والحياة والممات والأسقام والصحات ومعالجة الأبدان المريضات بالمعالجات الطبيات."[40]

وتقوم هذه النافذة على سؤال أساسي، هو: ماذا يمكن أن يحدث للكون والإنسان لو لم يكن المقدار والشكل والوضع بهذا النحو الذي خلقه الله؟ وهذا السؤال يدفع الطالب إلى البحث عن حِكم الله في الخلق استئناساً بمظاهره المسخَّرة والتقدير الكمي proportion ality and measurment، والتصوير الفني للكون intelligent design، والتوازن equilibrium، والتناسق consistancy الذي يجمع بين تكوين

[38] Tarnas, Richard. *The Passion of the Western Mind: Understanding the Ideas that have Shaped our Worldview*, London: Pimlico, 2010, p.65.

[39] خفاجي، حكمت عبيد حسين. "دلالة الكلمة في القرآن الكريم: الحكمة نموذجاً"، **مجلة كلية الفقه**، عدد16، 2012م، ص1–57.

[40] ابن تومرت، **كنز العلوم والدر المنظوم في حقائق علم الشريعة ودقائق الطبيعة**، مرجع سابق، ص20–21.

المادة وتشكيلها وحركتها والكائنات الحية بما فيها الإنسان. ويمكن توسيع ذلك ليشمل تأثيرات النشاط الإنساني، وما يترتب عليها من العمران والفساد، بتوظيف أوسع لمفاهيم القرآن، مثل: "التسخير"، و"الاستخلاف"، و"سُنَّة الله"، و"الأجل المُسمّى". فبهذا الشكل يكون مجال الحكمة في العلوم الفيزيائية هو البحث في الترتيب الإلهي في الكون، وأوجه الإتقان والإحكام فيه، ومحاكاة كل ذلك في طلب العلم وصياغة منتجاته التي تُؤثِّر باستمرار في العمران البشري معنوياً ومادياً.

إن مفهوم "الحكمة" لا يتعلق بفهم المقاصد الإلهية في الوجود المادي المُشاهَد والغائب وحياة الإنسان فحسب، بل يتعدّى ذلك إلى مجال آخر، هو بناء شخصية الطالب والمُعلِّم. فمن دلالات الحكمة في القرآن الكريم: الطريقة الصحيحة في العلم والعمل؛ لذا نجد أن الحكمة قد جاءت في إحدى المناسبات مرتبطةً بسلوك الشكر، كما في الآية الثانية عشرة من سورة لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ (لقمان: 12). فالحكمة تجعل كُلّاً من الطالب ومُعلِّم الفيزياء يعي جيداً أن ثمَّة عالماً أعظم، هو أمر الله، وشأنه وراء عظمة الكون الذي يدرسه الطالب، ويحاول فهم قوانينه، واستغلال موارده.

ح. نافذة النقد:

من أهداف الكتاب المدرسي الإسلامي تأسيس التفكير العلمي المتكامل المبني على التوحيد، وتجاوُز هيمنة الأيديولوجيات المادية، والابتعاد عن ضلالاتها التي تُرتكَب باسم العلم، والمعرفة، والنظريات، والمناهج الاختزالية. فالعلم كما بيَّنَّا سابقاً كيان مُركَّب من المعلومات متعددة الأصناف والمصادر، ودرجتها من البرهان واليقين، وما يقابلها من الصفات التي تناقض مفهوم "العلم". والعمل على تطهير هذه الجوانب يُمثِّل منزلة رئيسة في تأسيس التصور الإسلامي للمعرفة العلمية وجوانبها النظرية والتطبيقية. فالتاريخ الإسلامي للعلوم يشهد بفاعلية ممارسة العلماء المسلمين للنقد وأنواعه المتعددة في مختلف المجالات العلمية، بل إن كتباً كاملةً أُلِّفَتْ في هذا الموضوع، وبعضها تمكَّن من تغيير مجرى البحث في بعض المجالات، مثل: كتاب "الشكوك على جالينوس" لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (توفي 924م)، و"الشكوك على بطليموس" لعبد الله بن جابر بن سنان البتاني

(توفي 929م)، و"شرح مصادرات كتاب إقليدس" للحسن بن الهيثم (توفي 1039م)، و"حل ما لا ينحل" في علم الهيئة لشمس الدين الخفري (توفي 1550م).

إن ممارسة النقد وتشجيعه في قسم العلوم، ولو كان مستواه بسيطاً في هذه المرحلة من التعليم، له أهمية كبيرة في نمو تفكير الطالب علمياً، وتصوره لماهية المعرفة العلمية وخصائصها. والنقد في هذه المرحلة يقع على أنواع مختلفة، أبرزها: توجيه تفكير الطالب إلى تصحيح الرؤية الكونية وتصور مفهوم "الطبيعة"، وتصحيح بعض المعلومات عن تاريخ العلوم ومنجزاته، وكذا الحال في مجال العلوم التطبيقي واستخدام منجزاته. وتبعث ممارسة النقد رسالة مهمة إلى ذهن الطالب تفيده بوجود طرائق غير محصورة لتفسير الكون المادي وآياته، يكون البحث عنها ضمن مقاصد طلب العلم، والسعي إلى استحداث ممكنات جديدة في التفكير العلمي وتطوير تقنياته، وسبل الاستفادة من الخيرات التي بثَّها الله فيه. ولا شك في أن التدرب على النقد وممارسته في مراحل مبكرة تقي المُتعلِّم شرَّ ألوان عديدة من التعصُّب الذي يغلب على أصحابه الاعتقاد بكمال منجزاتهم العلمية، أو منجزات أتباعهم، إلى درجة إضفاء صفة "العصمة" على العلوم scienticism التي يشتغلون بها، وتوسيع مجالات صلاحيتها، وإنْ كانوا يُقرّون في مؤلَّفاتهم ومناقشاتهم بمحدودية المعرفة العلمية ونسبيتها.

وبقدر ما تفتح نافذة النقد من أبواب التحصيل العلمي أمام المُتعلِّم، فإنها تُحفِّز المُعلِّم والباحث إلى طرح الأسئلة غير التقليدية في هذا المجال، وتحثُّهما على السعي الدؤوب نحو الأجود والأحكم والأتقن في المعرفة العلمية؛ ما يدفع كُلّاً منهما –بلا شك– إلى استعمال الأدوات الخاصة التي يمتلكها دون غيره؛ سواء في التصورات الكلية (الرؤية الكونية التوحيدية)، أو المنهج (التعددية)، أو التطبيقات العملية للمعرفة العلمية (منظومة المقاصد والقيم).

2. آثار استخدام المصطلح القرآني في الكتاب المدرسي للعلوم الطبيعية:

لا شك في أن توسيع استخدام المصطلح القرآني في المجالات العلمية هو أمر لازم لبناء العمران الإسلامي، وإحياء منظومته العلمية والتعليمية التي غابت منذ قرون. وهو أيضاً أمر تفرضه ضرورة مُلِحَّة لمواجهة الأزمات التي تعانيها المنظومات والأنساق

الأيديولوجية والفكرية المادية، التي تُشكِّل صورة العلوم، وفروعها، ومحتواها التفسيري، واتجاهها البحثي، وتوظيفها العملي، والمؤسسات التي تُمثِّلها أو تقع تحت تأثيرها. ولعل من بين أعقد هذه الأزمات تحديد موقع التربية والترشيد الخلقي ومكانتهما، وإلزامهما ضمن التعليم والبرامج الدراسية المختلفة. فالانفصال الذي حدث بين العلم والبُعْد السلوكي والأخلاقي للمجتمعات وصل حدود الأزمة الخانقة التي أخذت تفتك بالمجتمع البشري؛ فها هو أحد رؤساء جامعة هارفارد (من بين أشهر عشر جامعات في العالم) يثير هذه القضية، وينتقد وجهة هذه المؤسسة في التعليم، قائلاً: "أصبحت أطراف أصابع جامعة هارفارد اليوم بعيداً عن التربية الأخلاقية،... وأنا محرج في أن أعترف أنها لا ترغب في القيام بذلك. فإن تقريرها العام عن استعراض سير مراجعة المناهج نص بشكل رائع على ما يلي: "نحن لا نزال نُدرِك مسؤوليتنا لتكوين أخلاقيات المواطنين المسؤولين والقادة". ولكن معظم قواعد السلوك الأخلاقي التي يستخدمها زملاؤنا في التعليم قد أُزيلت من قِبَل المجالس. فعلى العموم، لا يوجد توافق في الآراء بشأن ما يهم في بناء الشخصية الجيدة، بحيث نجد أن الزملاء يترددون في مساعدة الطلاب على أن يصبحوا أفضل الناس."[41]

فالعلوم ليست –كما يعتقد بعض أصحاب النظرات السطحية– مجرد معلومات، وتفسيرات موضوعية حيادية تتعلق بالوقائع، والقوانين، والفرضيات، والنظريات، وتقوم على المنهج الاستقرائي والاستنتاج،[42] بل إن هذا التصور لا يُمثِّل إلا جزءاً بسيطاً من الكل الذي يُشكِّل مضمون العلم. ولهذا، فإن علماء المسلمين القدامى قد أحسنوا عندما مثَّلوا العلم بالشجر، كما فعل الخطيب البغدادي (توفي ٤٦٣هـ)،[43] وأبو حامد الغزالي (توفي 505هـ)، وغيرهما:[44] (ثمرة، ومثمر، ومستثمر، وطريقة الاستثمار)، بوصفه تصوراً

[41] Lewis, Harry R. *Excellence without a soul: does liberal education have a future?* New York: Public Affairs, 2007, p.96-97.

[42] Hoodbhoy, Pervez. *Islam and Science: Religious Orthodoxy and the Battle for Rationality*, London: Zed Books Ltd., 1991, p.8-12.

[43] البغدادي، الخطيب. **اقتضاء العلم العمل**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، ط5، 1984م، ص14.

[44] الغزالي، أبو حامد. **المستصفى من علم الأصول**، تحقيق: حمزة زاهر أحمد، المدينة المنورة: د.ن، د.ت، ج1، ص18.

مُركَّباً لا بسيطاً، يضم ما تضم دلالة الشجرة من: الجذور، والجذع، والأغصان، والأوراق، والأزهار، والثمر؛ فكل هذه الأجزاء الفرعية لها ما يقابلها في تحديد ماهية العلم، بغضِّ النظر عمّا ادَّعى أصحابه من بساطته، وحياديته، وتجريده كما في العلوم الرياضية والفيزيائية. وأقل حضور لهذه المُكوِّنات هو الرؤية الكونية، واللغة، والتطبيقات العملية التي تُؤثِّر مباشرةً في حياة الناس.

وبسبب هذا التركيب؛ فإن العمل على إصلاح تعليم المواد العلمية، ومن بينها الفيزياء والهندسة في العالم الإسلامي، يجب أن يتخذ صورة العمل المُنظَّم، والتدبير الذي يقوم على التخطيط، والاستشراف، وتطبيق النماذج البديلة المُنتَجة في مختلف التخصصات، والاستمرار في بذل الجهود، والانتقال من مرحلة إلى أخرى للإحاطة بتلك المُكوِّنات المختلفة التي تُشكِّل ماهية العلم. وفي هذا الصدد، يمكن رسم بعض الخطوات، أو استعمال المصطلح القرآني لتصميم الكتاب المدرسي -على أقل تقدير- في أربعة مستويات أساسية، بحيث يشتمل المستوى الأول على إدراج مُبسَّط وظيفي للرؤية الكونية التوحيدية، والتركيز على قضايا العالم المادي والخالق. وفي المستوى الثاني يمكن توظيف مصطلح الوحي في صياغة اللغة العلمية ومفاهيمها، مثل: "خلق الله"، و"سُنَّة الله"، و"آية"، و"الأجل". أمَّا في المستوى الثالث فيكون التركيز على المنتجات العلمية وتأثيراتها في حياة الناس والبيئة بطرح مبحث القيم ومقاصد الشريعة في حفظ الدين، والإنسان، والمال، والبيئة. وأمَّا المستوى الرابع (وهو الأعلى) فيُعْنى بالتحفيز إلى البحث عن الإمكانيات البديلة النظرية والتطبيقية التي تتناسب مع الأساسيات الآنف ذكرها في المستويات السابقة.

ختاماً، فإن هذا المشروع التعليمي لا يمكن أن يُحقِّق نتائجه المنشودة من دون توافر طاقة وقدرات فردية أو مجموعات بحيثة صغيرة؛ فهذا العمل يتطلب تكاتُفاً لكل هذه القدرات الفردية والمجموعات البحثية، إلى جانب دعم المؤسسات التربوية والجامعات، وتبنِّيها الخطوط العريضة -على الأقل- لهذا المشروع، مع اعتبار مبدأ وحدة المعرفة العلمية، والتكامل العلمي والمعرفي بين التخصصات والفروع العلمية للمعرفة؛ ما يعني أنه لا يمكن للمتخصص في الفيزياء، أو الرياضيات، أو الهندسة، أو الكيمياء أن يُنجِز وحده هذا المشروع، بل إن جهود هؤلاء جميعاً يجب أن تدرس في حلقة علمية أوسع، بحيث

تشمل فئات أخرى من العلماء والباحثين في التخصصات الشرعية، مثل: العقيدة، والتفسير، والحديث، إلى جانب الباحثين في العلوم الإنسانية والعمرانية الأخرى.

خاتمة:

انتهى هذا البحث النظري إلى نتيجة مفادها أن علاقة الوحي بالتفكير العلمي والعلوم الطبيعية بوجه خاص هي علاقة وثيقة جداً، لا يمكن وصفها فقط بالتوازي، أو التجاور، أو ما يعاكس ذلك من الاستغلاق أو التعارض. فالعلاقة التي تجمع الوحي مع هذا الصنف من العلوم يمكن وصفها بالعلاقة التلازمية الضرورية، والبنائية الوظيفية، والأصولية التكوينية، التي لا يمكن الاستغناء عنها أبداً في تشكيل ماهية العلم وترشيد تطبيقاته العملية. فالوحي لا يَعُوق فكر الإنسان بتصوراته للكون وأحكامه في السلوك الفردي والجماعي، كما تدَّعي ذلك -كذباً- الفلسفات المادية في البحث العلمي والتعليم، وإنما يُمثِّل أقوى مُحفِّز وداعم لبناء التفكير العلمي، وتحقيق إنجازاته في بناء العمران البشري.

إنَّ مراجعة الوَحْي في هذا الوقت لبناء المعرفة العلمية والتفكير العلمي لم تعد عرضاً اختيارياً، وإنما ضرورة يُمليها الوضع السيئ الذي يعانيه المجتمع البشري بسبب انفصال العلم والتعليم عن هداية الوحي، ولا سيما في العالم الإسلامي الذي أخذ يخضع لاختراق مدمر من الفلسفات المادية وأيديولوجياتها في التعليم والاجتماع والتطور، وصل حدّاً لا يمكن معه إخفاء تأثيراتها السلبية. ويمكن للمصطلح القرآني -في خضم هذه المعركة الحضارية الشرسة- أن يُحدِث تأثيراً كبيراً في حال مراعاته في أثناء تصميم الكتاب المدرسي "العلمي"، وتوظيف مختلف أساليبه في الوسائط التعليمية العديدة. صحيح أنَّ لكلٍّ من هذه الوسائط التعليمية تأثيراتها الخاصة، لكنَّها تتَّجه جميعاً نحو مقصد واحد، هو تعظيم الخالق، وما يترتَّب على ذلك من تزكية النفس، وصقل الفكر، وشحذه، وتوسيع آفاقه، وتهذيب السلوك.